مجد أبو ريا | نشر في ١١ أبريل ٢٠١٩,

تاريخ الدعاية والحرب النفسية.. منذ الإسكندر لدير ياسين

تتعدد الأدوات المستخدمة في الحروب والمعارك – منذ الأزل -، ويظهر للإنسان أن تطور الأسلحة والمعدات المادية هي التي تحسم المعارك فقط، لكن الحقيقة أن هناك أسلحة غير مادية أشد خطورة حسمت الكثير من الحروب وغيرت معادلات كثيرة، باستخدام أقل ما يمكن من السلاح وهي "الدعاية والحرب النفسية".

إن الدعاية والحرب النفسية لم تأت دون تطور تسلسلي وخلفية تاريخية عريقة تعود لمئات السنين، فقد أدرك القادة العسكريون منذ القدم أهمية التأثير في العدو، وهناك العديد من نماذج لقادة اعتمدوا الحرب النفسية لفرض سيطرتهم.

الإسكندر المقدوني والحرب النفسية

الإسكندر الأكبر هو أحد ملوك مقدونيا الإغريق، ومن أشهر القادة العسكريين والفاتحين عبر التاريخ، وُلد في مدينة "پيلا" قرابة سنة 356 ق. م، ويعتقد بعض علماء المسلمين أنه نفسه "ذو القرنين" الذي تحدث عنه القرآن الكريم، وقد تتلمذ على يد الفيلسوف والعالم الشهير أرسطو حتى بلغ سن الـ16.

كان ما يميز ملك مقدونيا معرفته بأن الدعاية لها الأثر الأقوى في قلوب الناس، فقد خصص عمال يقومون بصناعة عدد كبير من الدروع والخوذات الضخمة جدًا، كان يتركها خلفه بعد أي غزوة أو حملة ليجدها العدو فيعتقد أن جيش الإسكندر الأكبر به عمالقة من الرجال فيبث الرعب فيهم ويجدهم مستسلمين

وبحلول عامه الـ30، كان قد أسس إحدى أكبر وأعظم الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم، وامتدت من سواحل البحر الأيوني غربًا وصولاً إلى سلسلة جبال الهيمالايا شرقًا، إذ إنه يُعد أحد أنجح القادة العسكريين في مسيرتهم، إذ لم يحدث أن هزم في أي معركة خاضها على الإطلاق.

كان ما يميز ملك مقدونيا، هو معرفته بأن الدعاية لها الأثر الأقوى في قلوب الناس، فقد خصص عمال يقومون بصناعة عدد كبير من الدروع والخوذات الضخمة جدًا، كان يتركها خلفه بعد أي غزوة أو حملة

ليجدها العدو، فيعتقد أن جيش الإسكندر الأكبر به عمالقة من الرجال فيبث الرعب فيهم ويجدهم مستسلمين.

وكانت أحد أسباب نجاح غزواته في أوروبا وآسيا، تخويفه للنخب المحلية في البلدان التي احتلها على التعاون معه حتى لا ينال الأعداء منهم، ونصح جنوده بإدخال الثقافة اليونانية لتطغي على الثقافات الأخرى، وكان يأمر جنوده بالزواج من بنات السكان المحليين بمهور عالية وذلك لدمجهم بالمجتمع الذي احتلوه.

فتح مكة.. بالحرب النفسية

استخدم الرسول – صلى االله عليه وسلم – الحرب النفسية في أشهر معركة تاريخية "فتح مكة" التي حدثت دون إهدار قطرة دم واحدة من جيش المسلمين ولا جيش الكفار بكل براعة.

فعندما جاء الرسول الكريم لفتح مكة وجاءه أبو سفيان وهو من سادة قريش، فجعل جيشه يسير أمامه في حركة دائرية مع تغير الرايات وتغير الجنود الراجلة الذين على ظهور الخيل مما أوحى لأبو سفيان أن عدد الجيش ضخم جدًا لا طاقة لقريش بهم وقد ذهب ونقل الصورة التي شاهدها مما ساهم في فتح مكة دون قتال.

شاهد التاريخ – أبرع وأبشع – من استخدم الحرب النفسية هم المغول ووصفهم بعض المؤرخين بأنهم عاثوا في الأرض فسادًا في معاركهم مع المسلمين وغير المسلمين، واعتمدوا على الدعاية في فتوحاتهم باستخدام طرق متعددة

وفي اليوم التالي لفتحه مكة ألقى النبي محمد – صلى االله عليه وسلم – خطبة عظيمة بيّن فيها بعض معالم الدين وحرمة مدينة "مكة"، ثم بايع الرجال والنساء من أهل مكة على السمع والطاعة، وذلك بعد أن كانوا من أشد أعداء المسلمين، وأقام بها بعد ذلك 19 يومًا وضح لهم فيها معالم الإسلام وتعاليمه ورتب فيها الشؤون الإدارة للمدينة.

الرعب المغولي

شاهد التاريخ – أبرع وأبشع – من استخدم الحرب النفسية ووصفهم بعض المؤرخين بأنهم عاثوا في الأرض فسادًا في معاركهم مع المسلمين وغير المسلمين، واعتمدوا على الدعاية في فتوحاتهم باستخدام طرق متعددة.

تعتبر نشر الإشاعة من أكثر الطرق التي استخدمها المغول ببراعة، راسمين دعاية عنهم، فكان القائد المغولي جنكيز خان "زعيم الإمبراطورية المغولية في القرن الـ13 ميلادي" يبعث عملاءه وجواسيسه المدربين، ينشرون وسط البلاد المستهدفة أحاديثهم عن أعداد المغول الكبيرة وأفعالهم الوحشية من أجل بث الرعب في النفوس.

كما كان يخدع جيش عدوه فيجعلهم يعتقدون أن جيشه أكبر من الواقع بشكل مبالغ، عن طريق مجموعة مدربة من الفرسان الذين كانو يتحركون بمهارة وبسرعة كبيرة من مكان إلى آخر، وفي كثير من الأحيان كان جنود عدوه يلوذون بالفرار.

في القرن الـ14 ميلادي سطر القائد المغولي تيمور لنك فصوًلا جديدة من الحرب النفسية لكن بألون أكثر إجرامية، حيث وضع 90000 من الرؤوس البشرية المقطوعة أمام جدران دلهي، لإقناع الهنود بتسليم أنفسهم خلال حملته على بلادهم

ومن أدوات جنكيز خان أيضًا في أثناء العمليات العسكرية الليلية، أنه كان يأمر كل جندي بإضاءة ثلاثة مشاعل عند الغسق لإعطاء وهم لدى الآخر بأنهم سيواجهون جيشًا ساحقًا لا قبل لهم به.

وفي القرن الـ14 ميلادي سطر القائد المغولي تيمور لنك فصوًلا جديدة من الحرب النفسية لكن بألون أكثر إجرامية، حيث وضع 90000 من الرؤوس البشرية المقطوعة أمام جدران دلهي، لإقناع الهنود بتسليم أنفسهم خلال حملته على بلادهم، إذ كان جنوده يقطعون الرؤوس البشرية ويعلقونها على أسوار المدينة لتخويف السكان ودفعهم للاستسلام.

وبنفس الطريقة دخل تيمور لنك مدينة حلب التي لقت من جيوشه قتًلا وسبيًا واغتصابًا، وامتلأت الطرقات بالجثث، وأحرق أجزاءً واسعة من المدينة، واستمرت المذبحة أيامًا بأمر تيمور، في ذلك الحين، كان أمراء الشام وأعيان حلب متحصنين في القلعة يحاولون الدفاع لكن دون جدوى.

في نهاية الأمر طلب الأمراء الاستسلام مقابل الأمان، فقبل منهم تيمور ذلك، وأمر بإنزالهم مقيّدين من القلعة إلى معسكره، فأخذ يعنّفهم، ثم عفا عنهم جميعًا سوى "سودون" الذي قتل رسوله، ثم غادر تيمور لنك حلب المدمرة بعد شهر، وترك على أسوارها تذكارًا لجميع المسلمين وهو "رؤوس القتلى".

ومن الجدير ذكره أن السائد أن جنكيز خان استخدم أعدادًا هائلة من المقاتلين واجتاح بهم أغلب مناطق العالم، إلا أن الدراسات الحديثة أثبتت أن أراضي وسط آسيا لا يمكن أن تعيل أعدادًا كبيرة من السكان في ذلك الوقت الذي كان بإمكانهم غلبة سكان المناطق المجاورة المكتظة بالسكان.

انتقلت الحرب النفسية إلى مرحلة جديدة ومختلفة تزامنت مع ظهور وسائل الإعلام الحديثة بداية القرن العشرين، لتصبح أدوات جديدة

يقول المؤرخون إن إمبراطورية المغول بنيت بإبداع عسكري ليس إلا، وذلك باستخدام القوات المدربة والجواسيس المتخصصين مع الاستخدام الصحيح للدعاية، فقد أشاع المغول أن أعدادهم كبيرة وطباعهم شرسة وقاسية بغرض إخافة أعدائهم وخفض معنوياتهم.

الحرب العالمية.. نقطة تحول

انتقلت الحرب النفسية إلى مرحلة جديدة ومختلفة تزامنت مع ظهور وسائل الإعلام الحديثة بداية القرن العشرين، لتصبح أدوات جديدة تم استخدامها في الحرب العالمية الأولى، فقد امتلكت بريطانيا واحدة من أشهر أنظمة الأخبار في العالم، مع الخبرة الواسعة في التواصل الاجتماعي اللذين أبقياها على علاقات جيدة مع كثير من دول العالم، مما مكنها من التأثير في الرأي العام العالمي.

كما حرضت الشعوب في الطرف الآخر على الثورة على الدول التي تحتلها، ونجحت من خلال إعلان العرب (الثورة العربية الكبرى) ضد السلطنة العثمانية في عام 1916.

وعلى هذا المنوال سارت فرنسا أيضًا، التي أنشأت دار الصحافة عام 1916، (وهي مكان تطبع وتنشر فيه الصحف الفرنسية)، وبدأت تستخدم الحرب النفسية، حيث أنشأت قسمًا في مكتب تكنولوجيا المعلومات والاتصالات باسم (الطيران الجوي قسم الدعاية)، برئاسة جان جاك الفالس وهو رسّام من منطقة الألزاس، حيث وزع منشورات من الصور فقط.

كما نشروا مبادئ الرئيس الأمريكي آنذاك ودرو ويلسون الأربعة عشر وعلى رأسها حق الشعوب في تقرير مصيرها، وذلك لإقناع العالم بأن الغرب يسعى لتحرير الدول المحتلة والارتقاء بها حتى تصبح قادرة على تقرير مصيرها وبالتالي يطبق عليها مبادئ ويلسون.

عين هتلر غوبلز وزيرًا للدعاية خلال الحرب العالمية الأولى، حيث نجحت دعايته التي استخدمها ضد تشيكوسلوفاكيا من خلال تحريض المواطنين ضد حكومتهم، ووصل تأثير هذه الدعاية إلى حد موافقة فرنسا وبريطانيا على احتلال ألمانيا لتشيكوسلوفاكيا ومسحها من الخريطة السياسية

أما في الحرب العالمية الثانية، فقد شهدت مرحلة تكوين المعالم ووضع الخطوط العريضة لمبادئ

الدعاية والحرب النفسية، والفضل بذلك يعود لألمانيا النازية بقيادة أدولف هتلر ووزيره جوزيف غوبلز.

ظهرت خلال هذه الحرب لغة الخطاب ولغة الجسد والخدع كطريق للتأثير في الرأي العام، واشتهر بها هتلر الذي رفع شعار "اكذب.. اكذب.. حتى يصدقك الناس"، وبالفعل كانت خطابات هتلر تؤثر بجماهير عدوه قبل حلفائه.

وقد استفادت ألمانيا من التجربة البريطانية في استخدام الحرب النفسية خلال الحرب العالمية الأولى، فعين هتلر غوبلز وزيرًا للدعاية، حيث نجحت دعايته التي استخدمها ضد تشيكوسلوفاكيا من خلال تحريض المواطنين ضد حكومتهم، ووصل تأثير هذه الدعاية إلى حد موافقة فرنسا وبريطانيا على احتلال ألمانيا لتشيكوسلوفاكيا ومسحها من الخريطة السياسية للدول في أوروبا وذلك عام 1938.

وعلى النقيض، استخدمت بريطانيا الخداع على نطاق واسع في ممارسة الحرب النفسية ضد الألمان كالخداع البصري والعمالة المزدوجة، فكان ذلك من الأسباب التي مكنت بريطانيا وحلفاءها من الانتصار في الحرب العالمية الثانية التي دامت لنحو ست سنوات.

"إسرائيل" والحرب النفسية ضد الفلسطينيين

استخدمت "إسرائيل" الحرب النفسية ضد الشعب الفلسطيني منذ حرب عام 1948 من خلال المجازر التي ارتكبتها مثل "مجزرة دير ياسين" و"مجزرة كفر قاسم" من أجل إجبار الفلسطينيين على الرضوخ للتهجير القسري للنجاة بأرواحهم وأعراضهم من مجازر العصابات الصهيونية.

تعتبر الحرب النفسية واحدة من أخطر أنواع الحروب عبر التاريخ، لما تثيره من أضرار أو انتصارات تاركة وراءها آثار طويلة الأمد

وبعد بث الإشاعة للرأي العالم العالمي تحت شعار "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، روجت "إسرائيل" بأن الشعب الفلسطيني هرب من أرضه لأسباب أخرى منها أن الفلسطينيين لم يهربوا من الإبادة في المذابح السابقة، بل إنهم تركوا أرضهم بناءً على أوامر الجيوش العربية التي كانت تنوي إبادة اليهود بعد خروج العرب.

وبذلك، تعتبر الحرب النفسية واحدة من أخطر أنواع الحروب عبر التاريخ، لما تثيره من أضرار أو انتصارات تاركة وراءها آثار طويلة الأمد، ويتضح ذلك من خلال التعبير عن الدعاية النفسية بمصطلحات عديدة كـ"حرب الأفكار" و"حرب الأعصاب" و"الحرب السياسية" و"العدوان غير المباشر".

رابط المقال: https://www.noonpost.com/27308/